أخيه لولا أن ساعده القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة ولكنه هو الذي رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان. خطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولي ابنه فعاجله القضاء وأخر الأمر إلى حين. لم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك ولم يكن عمر يميل إلى يزيد فخيف منه فعوجل حتى قيل إنه سم، أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاماً أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد، وكان كثير من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة في الدولة الأموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في إشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فإن البيت انشق وتجزأت القوى التي كان يستعليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الأنفاس وجعلتهم أثراً بعد عين.

ثانياً: إحياء العصبية الجاهلية التي جاء الإسلام معفياً لأثرها ومشدداً في النعي عليها لأنه رأى أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم في جاهليتهم.

وقد نبض عرقها في أول الدولة المروانية فإن وقعة مرج راهط التي تلاها قيام مروان بالأمر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايع الضحاك وكلب التي كانت تشايع مروان يقدمها حسان بن مجدل الكلبي، وقال في ذلك مروان:

لما رأيت الأمر أمراً نهباً ... يسرت غسان لهم وكلبا
والسكين رجالاً غلباً ... وطيئاً تأباه إلا ضربا
والقين تمشي في الحديد نكباً ... ومن تنوح مشمخراً صعبا
لا يأخذ الملك إلا غصباً ... وإن دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذي أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار بن عبيد الثقفي كاد يستأصل فإن عمر بن الحباب السلمي كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادى بالثارات قتلى اليمن وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله وكثير من جند الشام، في الوقت الذي فيه عرق العصبية الجاهلية بين قيس واليمن في الشام وكان ما هو أشد منه في خراسان مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبي صفرة وهو والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك حتى خلفت على خراسان رجلاً من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان